الباب الثالث

دروس من التاريخ

obeikandl.com

التدبير وليس المناطحة والتهور

لمولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) مقام كبير في نظر المسلمين. ولا يزال «المثنوى» الذي ألفَّه - من ٢٧ ألف بيت شعر - يتمتع بشعبية كبيرة في أوساطهم. وظل العلماء لعدة قرون يقرأون هذا الكتاب كإحدى أهم كتب المعرفة والاستلهام.

ودمر التتار بغداد سنة ١٢٥٨م، فقضوا على الدولة العباسية، وفرضوا على العالم الإسلامي حكومتهم الظالمة. ومولانا الرومي -الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٠ سنة تقريباً- قدَّم للمسلمين من خلال «المثنوى» دروساً روحانية وأخلاقية وسعى إلى النهوض بهم.

وفي الوقت نفسه حاول مولانا الرومي هداية مسلمي عصره إزاء القضايا التي كانوا يعانون منها. فقال للمسلمين -عبر الحكاية والرمز- ما ينبغي لهم وما لا ينبغي.

ومن الحكايات المعبرة التي أوردها: حكاية الأسد والأرنب، التي وردت بتفصيل في «الكتاب الأول» من «المثنوى»، وخلاصتها: أن أسداً كان يسكن غابة، وكان يهاجم الحيوانات كل يوم لإشباع جوعه ويلتهمهم، وكانت النتيجة أن كل الحيوانات كانت تعاني من الذعر والخوف بصورة دائمة، ثم اهتدت إلى حلٍّ عرضته على الأسد، وهو ألا

يهاجمها بل هي سترسل له طواعيةً حيواناً واحداً كل يوم، فرضي الأسد بالاقتراح. وأخذت الحيوانات تعمل بهذا الحل، وكانت تقرر كل يوم بالقرعة الحيوانَ الذي سيصبح غذاء الأسد، وكل من أصابته القرعة ذهب إلى الأسد. وهكذا أخذت الحيوانات تعيش بالأمن والطمأنينة داخل الغابة، إلى أن أصابت القرعة أرنباً. وكان هذا الأرنب قد فكَّر طويلاً في الأمر قبل ذلك اليوم، وقرَّر في قرارة نفسه أنه لن يسمح للأسد بالتهامه، بل سيقضي على الأسد بتدبيره وحكمته.

وهكذا وصل الأرنب -طبق خطة مدروسة- إلى الأسد بعد ساعة من الموعد المحدد للوصوله. وكان الأسد جائعاً بل وغاضباً نتيجة التأخير، وزداد غضبه حين رأى حجم الأرنب الصغير. وقال له الأرنب بكل أدب ورقة: «سيدي لقد جاء أسد آخر إلى مملكتك، وكانت الحيوانات قد أرسلت لغذاءك اليوم أرنبين، ولكن الأسد الآخر هاجمنا فتمكَّن من الأرنب الآخر، أما أنا فتمكنت من الهرب والحضور إليك».

والآن تحول غضب الأسد إلى الأسد الآخر، فصاح قائلاً: «من هذا الأسد الذي تجرأ على الدخول إلى غابتي؟ اصطحبني إليه لأقضي عليه». وخرج الأسد مع الأرنب، فأخذه الأرنب من مكان إلى آخر إلى أن انتهى به إلى بئر، فقال له: «سيدي ذلك الأسد موجود بداخل هذا المكان وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليه».

فأطلّ الأسد فوق البئر فرأى عكسه في الماء، وظنَّ أن ما قاله الأرنب صحيح، وأن أسداً آخر موجود حقيقة داخل البئر، فزأر، وخرج زئير الأسد الآخر». ولم يحتمل الأسد أن يأتي «أسد آخر» إلى مملكته، فوثب على الأسد المفترض، ومات داخل البئر.

وهكـذا قضى الأرنب بتـدبيره على عدو كـالأسـد. ويقـول مولانـا الرومي في نهاية الحكاية: إن شِبَاك تـدبير الأرنب كان شركاً للأسد. فما أعجب الأرنب الذي اصطاد أسداً!!

كانت هـذه هدايـة بلغة الحكايـة، قدَّمهـا مولانـا الرومي لمسلمي عصره ولم يحثهم على المنـاطحـة، ولم يقل لسكـان الغـابـة أن يتحـدوا للهجـوم على الأسـد، وأنهم لـو قضوا عليـه فسيكـونـون من الأبطـال الغزاة، ولا حرج لو أهلكهم الأسد فهـم سيلتحقون بقافلة الشهداء في تلك الحالة، وأنه من ظفر بدرجة «شهيد» فقد ظفر بمقام عظيم.

وعلى العكس من هـذا وجّـه المولانـا الـرومي مسلمي عصره نحـو التدبير الحكيم ودلهم على طـريق الحياة بـدلاً من طريق الموت. ويجب على من يتبع الحكمـة أن يقنع بالصغـر والهوان في البدايـة؛ لكي يصل في النهاية إلى العظمة والفوز الكبير.

ونصيحة مولانا الرومي نافعة لحالنا تماماً كما كانت نافعة لماضينا.

المطلوب: «عشرون سنة» لاختراق كبير

■ «اكتشف كولومبوس القارة الأمريكية» . . . يمكن لأحدنا اليوم أن يذكر هذه الواقعة بلسانه في أقل من ست ثواني، ولكن كولومبوس أنفق ٢٠ سنة حافلة بالمشاق من عمره لتحقيق هذه الواقعة.

وقد ولد كريستوفر كولومبوس بإيطاليا سنة ١٤٥١م، وتوفي بأسبانيا سنة ١٥٠٦م. وكان اكتشافه للقارة الأمريكية نتيجة فرعية لمحاولته اكتشاف طريق بحري من أوربا إلى الشرق. وطلب كولومبوس من الملك البرتغالي جون الثاني سنة ١٤٨٤م أن يساعده على هذه الرحلة البحرية، ولكن الملك البرتغالي لم يعتن به؛ لظنه أن خطة كولومبوس عقيمة وبدون جدوى. ثم توجه كولومبوس إلى ملكة قشتالة (إيزابيلا) ولكنها لم تردَّ بصورة إيجابية أول الأمر على طلبه، ولكن كولومبوس استمر في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية.

وبدأ كولومبوس في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية.

وبدأ كولومبوس رحلته الأولى بثلاث سفن في ٣ أغسطس ١٤٩٢م، ولكنه فشل في الوصول إلى الشاطئ الأمريكي إلا أنه واصل جهوده رغم كل المشكلات والمحن.

وأخيراً - في رحلته الرابعة سنة ١٥٠٤م - تمكَّن كولومبوس من اكتشاف «العالم الجديد». وكان العالم قبل كولومبوس ينقسم إلى جزأين، ولكن اكتشاف كولومبوس دمج العالمين «القديم» و«الجديد» في عالم واحد، وكان هذا اكتشافاً عظيماً، ولكنه لم يتحقق إلا حين استمر كولومبوس ورفاقه ٢٠ سنة يحاولون تحقيق خطتهم دون أن يفقدوا الأمل.

وهذا هو طريق النجاح في هذا العالم. فكل نجاح هنا يطلب «٢٠ سنة» من الجهد والتفاني وبدونها لا يمكن الوصول إلى نجاح كبير هنا.

كل نجاح كبير في هذا العالم يتحقق بعد جهد طويل، فيجب على الإنسان أن يرضى بالقليل في يومه الحاضر لكي يظافر بالكثير في غده القادم.

■ نيل أرمسترونغ هو أول إنسان وصل إلى القمر، ونزل من مركبة تسمى «الصقر»، ووضع قدمه على سطح القمر. وكان الاتصال قائماً بين الأرض والقمر في ذلك الوقت، وأول رسالة بعث بها أرمسترونغ بعد نزوله على القمر هي: «هذه خطوة صغيرة لواحدٍ من البشر ولكنها وثبة عملاقة للبشرية».

وكان أرمسترونغ يعني بهذا القول: أن نزوله على القمر هو نزول إنسان واحد على القمر في ظاهر الأمر، ولكنه في حقيقته بداية عصر كوني جديد. فقد ثبت بنزول إنسان واحد على القمر أن من الممكن لأي إنسان آخر أن يسافر إلى القمر. وسوف يتقدم هذا الاكتشاف في السنوات القادمة إلى أن يحين وقت سفر عامة الناس من كوكب إلى آخر، تماماً كما يسافرون على وجه الأرض اليوم من مدينة إلى أخرى.

وكل عمل عظيم في هـذا العالم يحدث هكـذا . فـرد واحد أو عـدة أفراد يضحون ليصلوا إلى اكتشاف جديد، وبـالتالي يفتحون باباً جديداً للمسيرة البشرية . وهذا العمل الرائد صعب للغايـة وهو بمثابة زحزحة جبل من مكانـه، ولكن بعد تحقيق هـذا العمل الرائد كل شيء يهون، فينكشف أمام عامة الناس طريق رحـب جديد ليواصلوا المسيرة بأعداد كبيرة .

وحين ينشر الفـلاَّح البـذور في حقله فكأنها خطـوة صغيرة في عـالم الزراعـة، ولكن بهذه الخطوة الصغيرة تبدأ مسيرة الفلاَّح الـزراعية إلى أن نشاهد في حقلـه فصلاً زراعياً متكامـلاً . وينطبق هذا على كل الشؤون البشرية سـواءً أكانت متعلقة بـالزراعة أو البستنـة أو أي شيء آخر من شؤون الحياة .

هل سوف نصبح آثاراً نُزار ؟

ذهبتُ منذ مدة إلى مدينة أجمير، حيث مقبرة الإمام خواجه معين الدين الجشتي . وهذه المقبرة الكبيرة يزورها مئات الناس يومياً . وتعجُّ المدينة الصغيرة بأكثر من مليون زائر من الخارج . لقد شاهدت أن المقبرة يقصدها كثيرون من غير المسلمين، كما شاهدت أن عدداً من الأوروبيين يجولون داخل المقبرة بكاميراتهم ومنظاراتهم . وهؤلاء هم السُّياح الذين يقصدون هذه المقبرة تماما كما يذهبون إلى الأماكن الأثرية الأخرىٰ . وقد رأيتهم يحملون في أيديهم كتباً عن الآثار في الهند، فمقبرة الإمام الجشتي هي الأخرى إحدى الآثار الهندية الهامة في نظرهم، فوجب عليهم مشاهدتها وتصويرها .

وقد هزّني هذا المنظر واتخذته عبرة . لقد كان الإمام الجشتي (٥٣٥-٦٣٣هـ) قبل ثمانية قرون وجوداً ثورياً للإسلام، والآن أصبحت مقبرته من الآثار. لقد أقام الإمام الجشتي بهذه المدينة ٤٥ سنة، وأسلم على يديه تسعمائة ألف شخص، وكانت شهرته تنتشر من أجمير إلى دهلي العاصمة . وأجمير التي كانت عاصمة الملك الهندوسي جاي تشاند أصبحت أجمير الجشتي . ولكن مقام الإمام الجشتي ليس بالنسبة للعالَم اليوم أكثر من أثرٍ قديمٍ عمره ثمانية قرون تجب رؤيته على المهتمين بالآثار القديمة .

هذه الآثار الإسلامية تتحدث بلسان حالها عن مركز الإسلام في دنيا اليوم. لقد انتهينا إلى «آثار» تزار. نحن لسنا عنوان العصر، بل نحن عنوان التاريخ القديم، كان وجودنا يفجر ثورة في العالم قبل ثمانية قرون، ونحن اليوم آثار من الحجر، يلقي عليها السُّياح نظرة عابرة حتى يظنوا أنهم قد استكملوا رؤية أهم الآثار المدَّونة في كتبهم. وما أعجب أن الأمة التي لقُبِّت بـ «خير الأمم» تصل إلى هذا المقام.

نحن مطالبون بالتفكير فيما إذا كنا راضين بالمقام الذي انتهينا إليه في مطاف الزمن. ولو كنا نرضى بالعيش كآثار على هامش الحياة، فلا جدال ولا قضية . . فنحن لسنا مطالبين حتى بأي عمل. ولو رضينا بوجودنا كآثار فالعالم لن يتحلمنا فقط، بل سوف يضعنا في معارض زجاجية.

أتذكر منظراً في لكناوْ حيث توجد حديقة باسم «بيلي غارد» وكانت بيلي غارد هذه قلعة الملك (واجد على شاه) آخر ملك مسلم على لكناوْ، وقد انهزم عقب معركة مع الإنجليز، وكان الذي يدير المعركة مع الكولونيل بيلي، وبإسمه عرفت هذه الحديقة العامة. وكان الإنجليز قد ضربوا القلعة بالمدافع الثقيلة حتى تهدمت جدرانها، وكان هناك مسجد داخل القلعة، وقد أصيب هو الآخر في هذه المعركة، وتضعضعت منارتاه وحدثت شقوق في جدرانه. واليوم لو شاهدت مسجد بيلي غارد لوجدت أن منارتيه الكبيرتين مربوطتان بالحديد. لقد ربطوا المنارتين بالحديد، لكي لا يتساقطا نتيجة التصدع الذي تسببت فيه القنابل التي دكتهما، فيقوما مقامهما كأن شيئاً لم يكن.

وهـذا المنظـر يحمل لنـا عبرة. فمعنـى هـذا أن منـارة الإسـلام -أو المسجـد- حين كانت تقف مـوقف التحدي من الأعـداء لم يتوانـوا عن ضربها بالمدافـع، ولكنها حين أصبحت أثراً مـن الأثار القديمـة أصبح محافظوها هم عين الذين كانوا يريدون تدميرها من قبل.

ولذلك أقول لكم أننا لو كنا قانعين بأن نعيش في سوق الحياة كسلع وآثـار، فـلا ضرورة للقيـام بأي عمل أو حتى بـالشعـور بأي خـوف، وذلك لأن العالم مستعد لوضعنا في فاترينات الزجاج كآثار قديمة.

بعض الناس يطمئنون بأن الـدِّين موجود وبخير حين يجدون الناس يرتادون تكايا صوفيـة، وبعض الناس مسرورون لأنهم يزيدون من عدد المصلين في الجوامع، وبعضهم يعتبرونـه انتصـاراً لـلإسـلام لـو فتحـوا بعض الكتاتيب وجمعوا الأطفـال وعلّموهم بعض كتب الدين. إن كل هذه الأعمال أعمال دينيـة مطلوبـة ومقبولة، وأنـا أشارك سعـادة الذين قاموا بها، ولكننا لو اقتنعنـا لأنفسنا بهذا المقام، فمعنى ذلك أننا نقتنع بمقام الخفـاش من حركـة الحياة. هل خلق اللـه هذه الـدنيا الـواسعة لكي نسلِّم أمرها لـلآخرين ونجلس في زوايا الجوامع وتكايـا الصوفية؟ هل جاء دين الله لإيصالنا إلى مركز الخفاش من الحياة؟

إن الزمـن قد حكم علينا بـأن نصبح في مقام الآثـار، أو على الأكثر في مقـام الخفـاش من الحيـاة. فهل نحـن سنقبل بهذه الحال؟ هل سنرضى بحكم الزمن هذا؟

لقد خلق الله عالمه واسعاً وفسيحاً، ودنياه تحفل بأنشطة هائلة. هل لا مجال لدين الله في أنشطة دنياه؟ هل الإسلام لا علاقة له بالمؤسسات العلمية؟ هل الإسلام بمعزل عن البطولات الفكرية؟ هل الاكتشافات العلمية لم تخلق مشكلات في وجه دين الله، وفي وجه المسلمين؟

أعتقد أنها ستكون غفلة كبرى لو أجبنا على هذه الأسئلة بالنفي. إنها ليست غفلة فحسب وإنما هي جريمة، فمعناها أننا نحدد مجالات دين الله فراراً من امتحان الحياة العملي.

obeikandi.com

قدوة لا سبيل إلى قهرها

قضى ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) جزءاً من حياته بالشام، وكان داخل دمشق حين حاصرها تيمور سنة ١٤٠٠م . وبدأ حوار بين تيمور وأهل دمشق خلال الحصار، وخلال هذا الحوار أبدى تيمور رغبته في اللقاء بابن خلدون الذي كانت شهرته -كمؤرخ- قد جابت الآفاق . وظن أهل دمشق أن تيمور يميل إلى الصلح، فربطوا ابن خلدون بحبال وأنزلوه إلى خارج سور المدينة، وهكذا وصل ابن خلدون إلى معسكر تيمور وأقام به سبعة أسابيع . وأكرمه تيمور وسمح له حسب رغبته بالذهاب إلى مصر، ولكن تيمور كان يرمي وراء إكرامه للمؤرخ ابن خلدون تحقيق مصالحه، فكان يحلم بمزيد من الفتوح . . فطلب أن يعد له خريطة مفصلة للشمال الأفريقي، ولم يكتف تيمور بالتحدث مع ابن خلدون بل استكتبه تقريراً جامعاً .

كان تيمور ظالماً وجبارًا في حق أهل دمشق، فحطم المدينة وحرق مسجدها الكبير رغم جنوح أهلها إلى الصلح، ولكنه أكرم ابن خلدون وقدَّره حق قدره، وذلك لأن ابن خلدون أثبت بعلمه الممتاز عن التاريخ والجغرافيا أنه دليل في غاية الأهمية لتيمور.

فلو أثبت الإنسان فائدته سيصبح محترماً في أنظار الكل، بل وحتى في أنظار عدوه الظالم الفتَّاك . فكونك مفيداً ونافعاً يجعل حتى الوحوش يكرمونك، وينحني أمامك حتى الملوك .

الحل السهل

● كان الشاعر ألطاف حسين حالي (١٨٣٧ - ١٩١٤) يملك عقلية ثورية، وبدأ حركة الإصلاح في الأدب الأُردي، ونقد الشعر الأُردي القديم بقسوة لدرجة أنه قال فيه: إنه عَلَمٌ على المبالغة والعشق والأوهام الافتراضية لا أكثر. . ونادى «حالي» بأن يكون الشعر هادفاً، وقدَّم نموذجاً للشعر الذي كان ينادي به في صورة ديوانه «المُسَدَّس».

واستاء بهذه الحملات الذين كانوا يعتزون بالشعر الأُردي ويعشونه، فأخذت صحف ذلك الزمان تنشر مقالات مقززة حول «حالي». وكانت صحيفة «أَوَدْهْ بَنْشْ» -التي كانت تصدر في لكناؤ- تنشر عنه كتابات لاذعة، وتزينهابأبيات شعر مقذعة.

ولم يردَّ «حالي» على هذه الحملات الهوجاء، وانكب في عمله بدون أن يتأثر بها . . فلم تمضِ بضع سنين حتى سكت المعارضون. ووجه بعضهم سؤالاً إلى «حالي»: كيف سكت معارضوك؟ فردَّ حالي على هذا السؤال ببيت شعر له معناه: «لقد قالوا كل شيء ولكنني لم أردَّ بشيء».

إن الردَّ السهل والناجح على المعارضات الكاذبة هو ألا تحفل بها. فالمعارضات الكاذبة تقوم بلا أساس، وقدرها أن تنهار تلقائياً. والردُّ على معارضة كهذه بمثابة مدِّ عمرها. ولو صبر الإنسان فسينهار هذا الشجر - الذي لا جذور له- من تلقاء نفسه. فلا قرار لأشجار كهذه على أرض الله.

والـزمن أكبر قـاتل للكـذب . . فعليـك بـالتريّث وانتظـار الغـد القادم، وسترى أن الزمن قد قضـى على الفتنة قضاءاً مبرماً، بينما كنتَ تخطط للقضاء عليها بتدابيرك الناقصة ووسائلك المحدودة.

وصلاح هذا التدبير لا ينحصر في قضيـة دون غيرها، فهو ناجح في كل القضايا التي تتحلى فيها بالصبر.

● كتب بعض المسيحيين على جسـور مـدينة دهلي وجـدرانها فقـرة «المسيح قادم قريبا» Jesus is coming soon . وانفعل بعض شباب الهنـدوس إزاء هـذا الشعـار، فخـرجـوا ليكتبـوا على كل الجدران أمـام الشعار: «ليصير هندوسياً».

ولو وقع شيء كهـذا مع المسلمين في مدينة مـا، لخرج بعض رجالهم السطحيين يقـولون بـأن هذه إهـانـة للـرسول وللمسلمين، وأنـه تحدٍ لغيرتنـا كأمـة . . وبـالتـالي ينفعـل شبـاب المسلمين ويقـوم بـردٍّ فعل مضاد، ويؤدي هذا كله إلى إشعال نيران اضطـرابات ضائفية. وعندها سينبري الزعماء المسلمـون للإدلاء ببيانات نـارية؛ لإثبات عدم كفـاية المسؤولين عن إدارة المدينة، وسيفتتح البعض منهم حملة اكتتاب لإغاثة المنكـوبين في الاضطرابـات؛ ليقـال إنهم مهتمـون بخدمـة المسلمين، وستنشر أخبار حـارة مثيرة في صحف المسلمين لتقفـز مبيعاتها . . بينما عامـة المسلمين لن يزدادوا إلا دماراً وتحطماً. أما المسيحيـون فلم يهتموا بهذه الشعارات فتحول هذا الحدث إلى لا حدث.

وقفت في ١٩ فبرايـر ١٩٩٠ على الجسر أمام فنـدق أوبيروي بدهلي وكـانت جدرانـه مليئة بهذه الشعـارات والشعـارات المضادة، وكـانت

السيارات تمرُّ بسرعة على طرفي الجسر ولم يكن أحد من ركابها يهتم بالأمر حتى يوقف سيارته ليقرأ الشعار والشعار المضاد. وكانت هذه الشعارات تنتظر الأمطار وعواصف الرياح لتمحوها قبل أن يتأثر بها أحد.

والذين يثورون إزاء إثارات لا قيمة كهذه فيمهدون السبل للإضطرابات الطائفية هم أجهل كل الجاهلين.

obeikandi.com

واقعة صغيرة ودرس كبير

ولد الشيخ سيد أمير علي (١٨٥٨ - ١٩٢١) بمدينة مليح آباد وتوفي بلكناؤ بالهند. ولم يتمكَّن من مواصلة دراسته بعد المرحلة المتوسطة (الإعدادية)، فأخذ يبحث عن وظيفة إلى أن عُيّن ناظر مكتب البريد بهارايتش. وتعلم أمير علي شيئاً من الإنجليزية للوفاء بمتطلبات وظيفته، وانهمك في عمله.

وكان سيد أمير علي مواظباً على الصلاة نتيجة التربية التي تلقاها من والديه، وإذ هو غائب ذات يوم لأداء صلاة الجمعة في المسجد حضر موظف كبير بهيئة البريد للتفتيش على مكتبه، وغضب غضباً شديداً حين لم يجد ناظراً المكتب حاضراً في مكان عمله، ووصل الخبر إلى أمير علي وهو يتوضأ بالمسجد، فلم يأبه به، بل أكمل صلاته بكل طمأنينة ثم عاد إلى المكتب.

وحاول المسؤول المذكور مساءلته فلاذ أمير علي بالصمت، فلم يردَّ عليه، ولم يعتذر له، بل أخذ ورقة وكتب عليها استقالته وأعطاها للمسؤول ثم عاد إلى بيته.

ولم يكن سيد أمير علي يعرف آنذاك إلا اللغةَ الأُردية وشيئاً من الإنجليزية، وكان يجهل العربية والفارسية. وهزته الاستقالة بأنه لا يعرف شيئاً عن الدِّين الذي استقال من وظيفته من أجله، لدرجة أنه

غير قادر على الـردِّ على سؤال ما حـول دينه . وقال في نفسـه : أنا أصلي ولكن لا أفهم معنى الصلاة ولا أعرف شيئا عن القرآن والأحاديث . .

وهنـا تـولـدت في أمير علي همة جـديـدة ، فقـرر دراسـة العـربيـة والفارسيـة ، وبرع في اللغـة العربية حتـى أصبح من كبار علماء عصره ، وعُيِّن في منصب «شيخ الحديـث» بكليـة دار العلـوم لنـدوة العلماء بلكنـاؤ، كما كان كبير المدرسين بـالمدرسة العـالية بكلكـوتا . وكـان ذا صلة بمطبعـة المنشى نَوَلْ كِشور، فترجم أمهات الكتب العـربية مثل : صحيح البخاري والفتاوى العالمكيرية إلى الأُردية .

لو كان بـداخل الإنسان حياة فإن واقعة عادية تحركـه ليقوم بالأعمال الجليلـة . أما لـو لم تكن فيـه حياة فستقـع عليه الـوقـائع العظام وهـو سيظل جسداً هامداً لا يعي شيئاً ولا يأخذ درساً .

«أنا غير مخطئ»

قُدِرَ عدد الكتب التي أُلِّفت حول هتلر منذ وفاته سنة ١٩٤٥ باللغة الإنجليزية وحدها بـ ٥٥ ألف كتاب! ومن أحدث هذه الكتب «مخبأ برلين» Berlin Bunker الذي صدر بلندن.

وكان هتلر قد قضى آخر أيامه الـ ١٠٥ بمخبأ عسكري ببرلين. وقد حصل مؤلف هذا الكتاب على معلوماته من زملاء هتلر ومعاونيه. وكان هتلر قد تراجع إلى هذا المخبأ في ١٦ يناير ١٩٤٥ حين دكت برلين ألف طائرة أمريكية. وكانت حالته قد ساءت لدرجة أنه كان يبدوا ابن سبعين سنة بينما عمره لم يتجاوز عن ٥٥ عاماً، وكان هاجسه الدائم أن القوات الروسية المتقدمة ستمسك به. وأخذ كل شخص يخذله في هذه الأيام الأخيرة إلى أن لم يبق معه إلا كلبه.

وكانت حكومة هتلر قد قامت منذ بدايتها على العنف، وبالتالي كان هتلر خائفا من الاغتيال في كل لحظة، ويقال إن هتلر تعرض لـ (٢٥) محاولة اغتيال خلال سنوات ١٩٣٩-١٩٤٥ ، ولكنه كان ينجو من هذه المحاولات دائماً، ولم يكن هتلر يحيط نفسه بتدابير أمنية ضخمة، بل كان مزاجه هو أن يغير برنامجه في آخر لحظة. ويقول البروفيسور هافمان: كان هتلر يقرر برنامجه في بعض الأحيان بتطيير قطعة نقدية في الهواء ويتخذ القرار حسب الوجه الذي تستقر عليه القطعة عند سقوطها على الأرض.

ويقول زملاؤه: لم يعترف هتلر حتى لحظاته الأخيرة بأنه أخطأ، وكان يلقى تبعة المسؤولية عن كل شئ على جنرالاته واليهود والشيوعيين .. بل وكان يتهم حتى شعبه. وحين يئس هتلر نهائياً من كل شيء انتحر بتناول حبة السيانيد.

ليس هناك من أحد في العالم يعترف بخطأه .. حتى هتلر الذي أجمع العالم كله على خطأه لا يعترف بذلك. والإنسان لا يعرف أنه سيأتي عليه عما قريب وقت يضطر فيه على الاعتراف بخطأه، وإن لم يعترف بلسانه فإن جوارحه ستشهد عليه، وهو لن يقدر على منعها من ذلك ..

قـوة الاتحـاد

ولد تـايكوبـراهي سنة ١٥٤٦م وتوفي بمـدينة بـراغ سنة ١٦٠١م . وولد يـوحان كيبلر سنة ١٥٧١ مـوتوفي بمدينـة ورتمبرغ سنة ١٦٣٠م . وكان كـلاهما مولعـاً بالبحث في علم الفلك ، ولكن لم يكـن أحد منهما قادراً على أن يكتشف بمفرده حقيقة عظيمة من حقائق الفلك .

وكـان تايكـوابراهي وكيبلـر معاصران ، وكـان كلاهما يـواجه عقبـة معينـة تحول دون اكتشـاف فلكي كبير، وهي تتمثل في أن أيـاً منهما لم يكن خبيراً بكل جـوانب مـوضـوعـه . وكـان تـايكـوبـراهي قـد قـام بمشاهدات فلكيـة على نطاق واسع ، وكان يسجل مشاهداتـه بانتظام إلى أن تجمعت لـديـه ذخيرة كبيرة من المشـاهـدات الفلكيـة ، ولكن الجانب الآخر من علم الفلك يتعلق بـالرياضيات ، وكان تـايكوبراهي ضعيفـاً في هذا المجـال ، فلم يكن قـادراً على ربط مشـاهـداته بكليـة الريـاضيات . أمـا كيبلر فلم يكن خبيراً بالمشـاهدات الفلكيـة ، فكان حظه قليلا ، من هـذا الجانب الهام من دراسة علم الفلك ، ولم يكن قد استخـدم المنظار رغم أنـه كـان قد اُخترع في زمنـه ، إلا أنـه كان يمتـاز بخبرته بالـرياضيات ، وكان قد وضع نظـريات قيمة في علم الفلك من الناحية الرياضية .

وهنا أفادت سعة ظرف تايكوبراهي وكرمه. وكانت هناك خلافات ذاتية بين تايكوبراهي وكيبلر لد رجة أن كيبلر اتهم معاصرِه في إحدى رسائله بالنفاق، إلا أن تايكوبراهي رغم مزاجه الحاد لم يغضب من كيبلر، بل رأى في آخر أيامه أن كيبلر خير وارث لذخيرته العلمية، فاستدعاء متناسياً تطوالته السابقة وأعطاه كل ذخيرته من المشاهدات المكتوبة بدون مقابل.

وحين توفرت لدى كيبلر ذخيرة مشاهدات تايكوبراهي ثم تلافى ما كان يعانيه من نقص، فصرف قواه العقلية لربط تلك المشاهدات بالرياضيات، ونتج عنه ثلاث كليات تعرف بـ «قوانين كيبلر حول تحرك الكواكب». واستخدام إسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) هذه القوانين فاكتشف قوة الجاذبية.

وهذا هو سر أي نجاح في هذه الدنيا، فلكل إنسان حدود، ولا يمكنه أن يقوم وحده بعمل عظيم. فالعمل العظيم لا يتحقق إلا حين يرضى عدة أشخاص بتسخير كفاياتهم وتوجيه جهودهم نحو هدف واحد. ولا سبيل إلى القيام بأمر عظيم في هذا العالم بدون تظافر الجهود.

ولكن الجهود المتواترة تتطلب ثمناً، وهو الثبات والمثابرة على الاتحاد، بغض النظر عن قضايا الاختلاف، والإصرار على الاتحاد رغم الاختلاف.

والاختلاف مما لا مناص منه في صفوف البشر، فيحدث الخلاف بين الناس رغم إخلاص الكل، ولا سبيل إلى النجاة من الخلاف.

والحل العملي هو أن يعـدَّ الناس أنفسهم لـلاتحاد رغم ألف اختلاف، وأن ينسوا الجوانب الفـردية الذاتيـة لأجل المصلحة العامـة الاجتماعية، وأن يتغاضوا عن الأشياء الصغيرة مـن أجل الأشياء الكبيرة، وأن يدفنوا متطلبات ذاتهم لأجل متطلبات الهدف الاجتماعي المشترك.

وهذا هـو علو الهمة وسعـة الظرف، ولا يمكن تحقيق مخطط عظيم في العالم بدون هاتين الصفتين.

obeikandi.com

قضية الحياة

ولدت غريتا غاربو بالسويد في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥، وتوفيت في الولايات المتحدة في ١٥ أبريل سنة ١٩٩٠. وكانت تبحث عن الشهرة فاتجهت إلى عالم السينما، وأحرزت نجاحاً كبيراً كممثلة، لدرجة أنهم يشيرون إليها بوصف معبودة الشاشة».

وحصلت غريتا على الثروة والشهرة معاً بعملها في الأفلام، ولكن هذا سلب منها شخصيتها، فكانت خاضعة تماما لرغبات وأوامر المتحكمين في عالم السينما، الذين كانوا يعيّنون لها كيف تقص شعرها، وماذا تلبس، وكيف تتحدث، وكيف تمشي. وكانوا يغيرون ملامح وجهها، المرة بعد الأخرى، بالمكياج. وكان عليها تدليك جسدها بصورة مستمرة لكي تحافظ على رشاقتها وخفتها. وقد سئمت غريتا من هذه الأشياء لدرجة أنها كانت تبكي وتصرخ في وحدتها، إلا أنها كانت عاجزة عن القيام بشيء نتيجة سيطرة رجال السينما على حياتها.

ووصل بها الأمر سنة ١٩٤١ إلى الانسحاب من عالم السينما نهائياً، وقضت بقية عمرها وحيدة داخل بيتها إلى أن ماتت عن ٨٤ سنة، فانتهت حياة الشهرة على موت مغمور.

وكانت غريتا تريد أن تموت بصمت، ولكن تمكن الكاتب أنطوني غرونوويتش بصعوبة من حملها على السماح له بكتابة سيرة حياتها وأن تخبره بأحوالها. ووافقت غريتا بعد إلحاحه الشديد بشرط أن يُطبع مثل

هذا الكتاب بعد وفاتها. وهكذا أُعدَّ الكتاب ولكن المؤلف مات سنة ١٩٨٥ عن ٧١ سنة، بينما كانت غريتا لم تزل على قيد الحياة. وتمَّ نشر هذا الكتاب بعد وفاتها بقليل في الولايات المتحدة بعنوان «غاربو: قصتها».

وقد نشرت صحيفة تايمز الهندية اقتباسات من هذا الكتاب في عددها الصادر في ٩ سبتمبر ١٩٩٠. وطبقاً لهذا الاقتباسات قالت غريتا للمؤلف في آخر عمرها: «فقدت إيماني بالناس وحتى بالله، الذي وضعني في هذا الموقف بدون أن يجيب بوضوح على أسئلتي. وأنا أطفوا على مياه الحياة بدون اتجاه وبدون هدف وبدون معرفة السبب والمدة التي ستسغرقها حياتي هذه».

إنها قصة امرأة تركت الله تعالى وجعلت غير الله مركز آمالها، ولم تشعر بالسكينة، وعاشت هذه الحالةَ من القلق إلى أن قضت نَحْبها بعد خمسين سنة.

وما وقع لغريتا غاربو قد يعتبر أمراً في منتهى الغرابة، ولكن الحقيقة هي أن الكل منا يواجه هذا الموقف من ناحية أو أخرى. فالكل يلهث وراء غير الله، وحين يظفر بطلبه يكتشف أن ذلك الشيء لم يكن جواباً لطلبه، فقد جعل مقصوده ومطلوبه شيئاً ما كان ينبغي أن يكون هدفه في حقيقة الأمر.

كل إنسان يبدأ مسيرة حياته ظانّاً أنه يقترب بسرعة من هدفه النهائي، وحين يصل إلى ذلك الهدف يكتشف أنه لم يكن هدفاً بل حفرة وقع فيها حاملاً أمانيه وآماله.

درس من التاريخ

تقول لنا التوراة أن عائلة سيدنا يوسف كانت تتكون من ٦٧ شخصاً حين وفدت على مصر بدعوته عليه السلام. ولا يشمل هذا العدد النساء اللواتي انضممن إلى أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام بالمصاهرة. وجاء موسى عليه السلام بعد وفاة يوسف بنحو ٥٠٠ سنة. وحين خرج بنو إسرائيل من مصر معه كان عددهم يبلغ مئات الألوف. وتقول التوراة أنه طبقاً للإحصاء الذي أجراه سيدنا موسى بعد سنتين من خروجه من مصر، وهو بصحراء سيناء، كان عدد الرجال القادرين على الحرب يبلغ ٦٠٣,٥٥٠ رجلاً. وهذا يعني أن العدد الكلي لبنيإسرائيل، بما فيه النساء والرجال والأولاد والشيوخ، كان يقارب المليونين.

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يصل عدد أخلاف (٦٧) شخصاً إلى مليونين بمجرد التوالد والتناسل الطبيعي عبر خمسمائة سنة. لقد زاد عدد بني إسرائيل بهذه النسبة غير العادية من جراء التبليغ. فالمصريون الذين غيَّروا ديانتهم من جراء تبليغ بني إسرائيل اصطبغوا بصبغة بني اسرائيل الثقافية. وتطلق التوراة على هؤلاء المؤمنين الجدد وصف «خراف مخلوطة». وحين خرج بنو إسرائيل من مصر كان معهم إخوانهم في الدين هؤلاء.

ونعرف عن بني إسرائيل أنهم كانوا شعباً مغلوباً على أمره ومحكوماً في مصر. وكان المصريون يستخدمونهم كعبيد وأجراء، بينما الأقباط كانوا علية القوم ونخبتهم المكرمة. أما بنو إسرائيل فكانوا -في مقابل هذا- محتقَرين ومقهورين لا أهمية لهم في المجتمع. وتمكَّن بنو إسرائيل رغم هذا من التأثير في كثير من الأقباط، الذين نبذوا دين فرعون وآمنوا بدين موسى. وهذا يكشف أن الدين الحقّ قوة أكبر من كل القوى الدنيوية، وأن الدين الحق يستقطب الناس حتى في أحوال يبدو فيها ضعيفاً عاجزاً عن التأثير في الناس.

وطلب الدين الإلهي كامن في الفطرة البشرية، وهذا هو السر لقوته. فالدين الإلهي يغزو قلوب البشر بقوته الذاتية وليس بسبب قوة المؤمنين القومية أو المادية.

شاهدان

كان الحاج إمداد الله المكي (١٨١٧ - ١٨٩٩) من كبار مشايخ الهند. وكان أسلوبه أنه كلما نقل إليه شخص ما خبراً سيئاً حولَ شخص آخر، بادره قائلاً: إئتني بشاهدين. وحين يفشل ذلك الشخص في إحضار شاهدين تصديقاً على دعواه، كان يُنهِي القضية في مكانها، قائلاً: لاعبرة لكلامك؛ لأنك لا تملك شاهدين لتصديق ما تدعيه.

وهذا هو عين الأسلوب الشرعي. وقد وضع الإسلام مبدأ الشهادة لإثبات الدعاوى في المعاملات؛ أي أنه من المطلوب من كل مدعٍ في المعاملات والقضايا الأخرى المماثلة أن يأتي بشاهدين، أما في قضية الزنا فالمطلوب أن يأتي بأربعة شهداء.

ولو وجّه شخص ما تهمة ضد الآخر فمن مسؤوليته -انطلاقاً من المبدأ الشرعي القائل بأن البيّنة على المدعي- أن يقيم الدليل على ما يدعيه، وسيكون كلامه بلا معنى لو أخفق في تقديم الدليل الشرعي.

وقد انعدم هذا المبدأ في العصر الحالي نتيجة فساد الأمزجة. والإنسان لا يرى أن هناك حاجة لأي دليل مطلقاً للإيمان بأي شيء ضد شخص يشكو منه أو يعاديه، وهو يعترف بأي شيء يقال ضد ذلك الشخص، فلا يطلب بيّنة ولا شاهدين.

وقد عمَّ هذا الفساد حتى في الخواص ناهيك عن العوام، وحتى «الأكابر» ليسوا استثناءاً من هذا. ولم أسمع أنا على الأقل في حياتي عن شخص أن تهمة وجهت أمامه ضدَّ أحد معارضيه فطلب من المُتَّهِم أن يأتي بشاهدين لإثبات اتهامه وإلا رُفِض كلامه.

وكانت العظمة تعني في قديم الزمان ما يعكسه المثال الآنف الذكر، أما اليوم فقد تغير مفهوم العظمة، فأكابر القوم يصدقون أخرق التُّهم دون شاهد ولا دليل، ورغم ذلك لا تتأثر عظمتهم، بل يظلُّون شخصيات مقدسة في نظر الناس.